إزدواجية التمثيل الشعري للمرأة الأندلسية
بين الجانبين: الحسي والرمزي المعنوي

الدكتورة: زهراء تود
جامعة محمد الخامس بالرباط
المغرب

➢ **ملخص المقال:**

يتناول هذا المقال صورة المرأة في الشعر الأندلسي، من خلال مقاربة تحليلية نقدية تبرز ازدواجية التمثيل الشعري بين الجانب الحسي المباشر والجانب الرمزي المعنوي. ويبين أن الوصف الحسي طغى بشكل واضح في الغزل الأندلسي، حيث انصب اهتمام الشعراء على إبراز مفاتن المرأة الجسدية وإثارة اللذة والمتعة، متأثرين ببيئة أندلسية مترفة وبحياة حضارية منفتحة. كما يكشف المقال عن ظاهرة الازدواجية في المواقف الأخلاقية والفكرية للشعراء الأندلسيين، الذين جمعوا بين التدين والمجون، وبين الزهد والانغماس في الملذات. ويبرز كذلك دور المرأة، حرة كانت أم جارية، في الحياة الثقافية والاجتماعية بالأندلس، وانعكاس ذلك على مكانتها في الشعر. ويخلص المقال إلى أن صورة المرأة في الشعر الأندلسي ظلت في الغالب أسيرة الوصف الحسي، مع حضور محدود للبعد الرمزي، ما يعكس خصوصية التجربة الأندلسية وتفاعلها مع الطبيعة والحضارة وتعدد الأعراق.

➢ مقدمة المقال:

يُعدّ موضوع المرأة من أبرز الموضوعات التي استأثرت باهتمام الشعراء والنقاد في الأدب العربي عامة، وفي الشعر الأندلسي خاصة، لما له من ارتباط وثيق بالبنية الاجتماعية والحضارية والثقافية للمجتمع الأندلسي. فقد عكست صورة المرأة في الشعر الأندلسي تحولات عميقة في نظرة الشاعر إلى الوجود والحياة والجمال، وتفاوتت تمثلاتها بين الوصف الحسي المباشر الذي يركز على الجسد ومفاتنه، وبين البعد الرمزي والمعنوي الذي يجعل من المرأة أفقًا دلاليًا يتجاوز حدود الحس إلى المعنى. ويسعى هذا المقال إلى رصد ملامح صورة المرأة في الشعر الأندلسي، من خلال تتبع تجلياتها في الغزل الأندلسي، وتحليل السياقات الاجتماعية والحضارية التي أسهمت في تشكيل هذه الصورة، مع الاستشهاد بنماذج شعرية دالة لعدد من أعلام الشعر الأندلسي.

يتبين من خلال الاطلاع على قصائد الغزل في الشعر الأندلسي عبر مراحل نموه وتطوره تأرجح صورة المرأة بين جانبين حسي مباشر ورمزي معنوي:

أ- فالجانب الحسي المباشر:

يطغى الجانب الحسي المباشر في الشعر الغزلي الأندلسي على وصف مظاهر المرأة الخارجية باحثا عن مواطن الجمال فيها، متفننا بمحاسنها الخلقية بغية إثارة مشاعر اللذة والمتعة والشهوة لدى المتلقي. والشاعر المقتدر هو الذي يستطيع أن يدرك جمال المرأة الذي كما قال الجاحظ إن أمره "أدق وأرق من أن يدركه كل من أبصره."[1] أي أن حاسة البصر غير كافية وحدها لإدراكه "وإنما يحتاج إلى إعمال العقل والثقافة والرياضة أو الخبرة. "[2] ويقوم الجمال عند الجاحظ على مقياس الاعتدال أي التناسب والتوازن بين أعضاء الجسم. "والمرأة الجميلة هي المرأة المجدولة والمجدولة هي التي تتوسط بين السمينة والممشوقة، ولا بد فيها من جودة القد وحسن الخرط واعتدال المنكبين، واستواء الظهر ولا بد من أن تكون كاسية العظام بين الممتلئة والقضيفة."[3] إلا أن الجاحظ لم يشر في حديثه عن مقاييس الجمال إلى الجمال النفسي أو الباطني للمرأة. وقد عجت دواوين الشعراء خلال العهود الباذخة من الحكم العربي بالأندلس بأشعار النسيب والغزل، وجذبت إليها كل شرائح المجتمع من شعراء السمر واللهو والشعراء المتفقهين في الدين على السواء، حيث وقعوا جميعا في شراك ازدواجية المواقف، وهي ظاهرة كما تقول الدكتورة فاطمة طحطح " تحدث عنها الدكتور إحسان عباس في كتابه "الشعر الأندلسي والأخلاق " وأتى بنماذج عديدة على هذه الازدواجية مثلا. حديثه عن القاضي ابن ذكوان، كيف يكون شديدا، وقورا في مجلس القضاء، ثم كيف يكون متحررا... في مجلس الصفاء ومع جلسائه وأصدقائه.

وتعليل هذه الازدواجية ـ عندنا ـ أن هذا المجتمع عاش أوضاعا خاصة، منها: تعدد العناصر والأجناس والطبقات التي كان يتكون منها، ومنها على المستوى السياسي، الخارجي الداخلي، هناك الفتن والحروب التي لا تهدأ إلا لفترات محدودة، والتقلبات السياسية المذهلة التي عاشتها الأندلس،"[4]

وَاغنَم حَياتَكَ فَالبَقاءُ قَليلُ عَلِّل فُؤادَكَ قَد أَبَلّ عَليلُ

ما كانَ حَقا أَن يُقالَ طَويلُ لَو أَنَّ عُمرَكَ أَلفُ عامٍ كامِلٍ

وَالعُودُ عُودٌ وَالشَمولُ شُمولُ أَكَذا يَقودُ بِكَ الأَسى نَحوَ الرَدى

وَالكأسُ سَيفٌ في يَدَيكَ صَقيلُ[5] لا يَستَبيكَ الهَمُّ نَفسَكَ عَنوَةً

ولهذا ويهاجس الخوف من قتامة الوضع المتقلب، وما قد يسفر عنه المستقبل من مفاجآت غير سارة انخرطوا جميعا في التمتع بما جادت عليهم البيئة الأندلسية من هبات ربانية جميلة، ولا أدل على ذلك من دعوة المعتمد بن عباد الناس إلى اغتنام الحياة لأن البقاء فيها قليل في قوله:

تعبر الأبيات عن جنوح الأندلسي إلى ملذات الحياة عوض الركون إلى الأسى، لأنها زائلة لا محال.

كما أكدت الدكتورة على أن هذه الازدواجية استولت على عناصر المجتمع الأندلسي، وعلى طريقة تفكيرهم وسلوكهم ورؤيتهم للحياة، إذ نجدها قائمة بين الدين والتقوى والورع، وبين الجهر بالمتع الحسّية بلا حدود، وبين الجمود والتزمت وبين التفتح والشذوذ والانحلال.

وهكذا فإن في "هذا المجتمع الذي استطاع الإسلام أن يسمه بطابعه في بعض مظاهره الخارجية، دون أن يشكله بعمق. استطاعت المرأة رغم كل الضوابط الدينية أن تلعب دورا رئيسيا، أوضح مظاهره أنها استحوذت على فكر الرجل. ونجد بين الأندلسيين من اعتبرها كائنا شريرا."[6] وقد انعكست تلك الازدواجية عند معظم الشعراء في أشعارهم على مستوى تباين الرؤى الفنية وتعدد المواقف في القصيدة الواحدة، "فقد نقرأ لشاعر واحد، مثلا قصيدتين إحداهما في منتهى المجون والتهتك، والأخرى في منتهى الزهد والوعظ الديني، حتى يخيل للقارئ أن هناك شاعرين في شاعر واحد."[7]

ويقوم الوصف المباشر على اعتبار المرأة " ذاتا موجودة وجودا فعليا، أي كذات يتفاعل معها منتج الصورة ويعقد معها علاقات حوار وحوار مباشرة، وتبعا لهذا فإن الصورة المباشرة للمرأة لا تبتعد كثيرا عن مواصفات المرأة الجسدية والنفسية المعطاة."[8] وتبرز براعة الشاعر في وصفه ذلك، وفي اختيار أساليبه البيانية والبديعية التي تسمو بالتعبير من التقريرية المبتذلة. فالشعر يقتضي التسلح بثقافة واسعة، وقدرة على المحاكاة والتخييل، واختيار أجمل التعابير المجازية والتشبيهية بغية الإفصاح عما يدور في خلجات نفسه من مشاعر الحب والشوق والحنين والمتعة، إرضاء لرغباته المسحورة بدفء الجمال والراغبة في الاستفادة من عالمها الندي بعطاءاته البهية. والشاعر المقتدر هو من يجمع بين جزالة اللفظ وقوته وغزارة المعنى ودلالته ودقته، وقدرته على الإتيان بصور شعرية تفتن السامع وتجمح بخياله.

وتجدر الإشارة إلى أن الوصف المباشر في الغزل الأندلسي لم يستثن أي صنف من النساء فتناول ولو بتفاوت كلا من القيان والجواري والأميرات والزيجات وغيرهن." فالمرأة الجارية، أو امرأة المجلس وساقية الخمر، لا يرى فيها الشاعر سوى المفاتن الجسدية.

وأما المرأة المحبوبة التي تنتمي إلى طبقة أرقى، غالبا ما يمس وصفها الجانب الجسدي الحسي، والجانب المعنوي المتمثل في تصوير الآثار النفسية التي تخلقها في قلب الشاعر من جراء تعلقه بها.

أما صورة الزوجة أو الأم، فالأشعار فيها قليلة، والصورة لهذا النموذج من النساء أرقى وأسمى، نظرا لمكانتها ودورها بالنسبة للزوج وللأبناء، خاصة عندما يرثيها الشاعر بعد وفاتها، ويصف مقدار ما خلفته من فراغ في البيت، ومن حزن في قلب الأبناء والزوج."[9]

ومن الظواهر التي يتميز بها شعراء الأندلس كذلك، وربما هي أثر من آثار الانفتاح أنهم لا يفرقون بين المرأة الحرة والمرأة الجارية، فتغدو الجارية كالحرة في العشق والحب والتكريم، وتزول حواجز الرق والعبودية، وتطفو الإنسانية بأسمى معانيها، فقد تغزلوا بالجارية ونظموا فيها دُرَرَ أشعارهم، حتى غدت الجارية في مكانة تحسدها عليها الحرة، حيث كان للجواري دور كبير في الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية الأندلسية منذ الفتح

الإسلامي للأندلس، فنظرة الشاعر الأندلسي المتميزة، اتجاه المرأة، نظرة قائمة على مفاهيم ومعايير جديدة، غير تلك التي ألفناها من قبل، في الشعر المشرقي ويعود ذلك -بالدرجة الأولى- إلى طبيعة المجتمع الأندلسي، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، فالأندلس شكلت مزيجا من الأجناس والأعراق المختلفة استطاعت أن تكون مجتمعا بعقلية فريدة، وبمفاهيم جديدة، وهذا شيء طبيعي لأن شخصية الأندلسي بصفة عامة ساهمت في تكوينها وتحديد معالمها ووسمتها بصفات مشتركة مجموعة من العوامل أهمها الطبيعة الخضراء التي ساهمت في تفشي هذه المفاهيم لما أتاحته للمرأة والرجل على حد سواء من فضاءات للاختلاط، أهمها الحدائق والمتنزهات، وعامل الحضارة التي طبعت المجتمع الأندلسي الذي أتاح بدوره فضاءات أخرى كالمنتديات، ودور الثقافة، والعلم، وقد ساهمت هذه الحضارة مع الفتوحات في دخول الجواري للقصور ومنافستهن الحرائر في الحب والحظوة والتكريم، كما أدت الفتوحات إلى اكتشاف ملامح جديدة للجمال، كانت رافدا للشعراء والأدباء. وفضلا عن عاملي الطبيعة والحضارة نجد دور عامل احتكاك وتعايش وتجانس الأعراق والأجناس المختلفة في تشكيل شخصية الأندلسي والتي كما استدل عنها الدكتور جودت الركابي بقول ابن غالب الذي يرى أن " أهل الأندلس عرب في الأنساب والعزة والأنفة وعلو الهمم وفصاحة الألسن وطيب النفوس وإباء الضيم وقلة احتمال الذل، والسماحة بما في أيديهم، والنزاهة عن الخضوع وإتيان الدنية؛ هنديون في إفراط عنايتهم بالعلوم وحبهم فيها وضبطهم لها ورواتها، بغداديون في نظافتهم وظرفهم ورقة أخلاقهم ونباهتهم وذكائهم وحسن نظرهم وجودة قرائحهم ولطافة أذهانهم وحدة أفكارهم ونفوذ خواطرهم، يونانيون في استنباطهم للمياه ومعاناتهم لضروب الفراسات واختيارهم لأجناس الفواكه وتدبيرهم لتركيب الشجر وتحسينهم للبساتين بأنواع الخضر وصنوف الزهر، فهم أحكم الناس لأسباب الفلاحة."[10]

ولعل برصدنا بعض المقتطفات من قصائد الغزل التي نظمها شعراء واكبوا حقبا من تاريخ العصر الأندلسي يبين بجلاء ولعهم بالوصف الحسي للمرأة رغم اختلاف مشاربهم الفكرية، فالإمام أبو محمد علي بن أحمد بن حزم 384هـ/456هـ[11] رغم تفقهه في الدين ألف كتابا أسماه "طوق الحمام" أفرده للحديث عن الحب، ونظم كذلك قصائد كثيرة في وصف جمال المرأة مثل قوله: من البحر الطويل

فقلتُ لهم: هذا الذي رَانَها عندِي بعيونَها عندي بشَقْرة شَعرها

لرأيِ جَهولٍ في الغِوايةِ ممتدٍّ يعيبون لونَ النُور والتُرب ضِلَّةً

ولونَ النجومِ الزَّاهراتِ على بُعدِ[12] وهل عاب لونَ النَّرجسِ الغضِّ عائبٌ

دافع الشاعر في هذه الأبيات عن اختياره للمرأة الشقراء اللون معتبرا معابة الناس له ضربا من الجهل والغواية، فكيف يعاب اللون الأشقر وهو يحاكي لون النور والترب والنرجس والنجوم الزاهرات عن بعد؟

كما نجد الشاعر الأديب أبا الحسن حازم بن محمد القرطاجني صاحب كتاب "منهاج البلغاء وسراج الأدباء" يبدع في نظم قصيدة جيمية من البحر الكامل قدم لها المقري، وعدها "من بديع نظمه ...عارض بها في المعنى رائية ابن عمار وزير المعتمد بن عباد."[13] وصف امرأة بالقمر المنير المتوج بالهلال وبالبدر الذي تسري بضيائه الركاب وتدلج. يقول:

قَدْ حازها دونَ الجوانحِ هَوْدَجُ قفْ أيُّها الحادِي أوَدعُ مهجةً

قمرٌ منيرٌ بالهلال متوَّج لما توافقنا وفي أحداجها

بضيائه تسري الركاب وتُدْلج[14] ناديتهم قولوا لبدركُمُ الذي

وأما أبو البقاء الرندي 601 هـ 784هـ المشهور بمرثيته للمدن الأندلسية التي سقطت تباعا من الحكم الإسلامي، التي مطلعها:

فلا يُغرُّ بطيبِ العيشِ إنسانُ لكلِّ شيءٍ إذا ما تم نُقصانُ

يقول واصفا محبوبته

أ لِثامٌ شفَّ عن وردٍ ندٍ أمْ غَمامٌ ضحكتْ عن بَرَدِ

أَمْ على الأزْرارِ في حُلَّتِها بدرٌ تَمَّ في قَضيبٍ أمْلَدِ

بأبي ليـن له لـو أنه نُقلتْ عطفَتُه للخَلَدِ

لا وألحاظٍ لها ساحرةٍ نفثتْ في القلبِ لا في العُقدِ[15]

اختار الرندي بحر الرمل ليعبر عن افتتانه بجمال امرأة كالبدر الذي يُستشف من وراء لثام.

يبدو من خلال المقاطع الشعرية السابقة، أن الشعراء الأندلسيين في الغالب رغم تنوع أوضاعهم الاجتماعية، وميولاتهم العقيدية والمذهبية، لم يستطيعوا التخلص من فتنة المرأة، فقد ظلت والطبيعة جزءا من وجودهم. ولم يقتصر شعر الغزل الحسي على الشعراء بل خاضت فيه المرأة الشاعرة نفسها، وبرعت في الكثير من الأوصاف لمحاسنها دغدغت بها مشاعر الرجل وملكت قلبه، كما هو الشأن بولادة بنت المستكفي التي" كانت أشعارها أثيرة لدى الناس، فقد ذكر كثرة من مؤرخي عصرها أنها كتبت بالذهب على طرازها الأيمن:

وأمْشِي مِشيَتِي وأَتيهُ تيهًا أنا واللهِ أصلُحُ للمعالِي

وكتبت على الطراز الأيسر:

وأُعطي قُبلتي من يشْتهِيهَا[16] وأُمَكِّن عاشقِي من صَحْن خدِّي

ولنا عودة في المبحث الأول من الفصل الثاني للتحدث عن صورة المرأة في شعر كل من ابن زيدون وابن حمديس وبن خفاجة، باعتبارهم بصموا الشعر الأندلسي بقصائد في الغزل شهرة كبيرة تناقلتها الكتب الأدبية والنقدية عبر العصور. كما سنخصص المبحث الثاني منه لتحليل نماذج من شعر بعض الشواعر الأندلسيات اللواتي أثروا الشعر العربي بصفة عامة.

ب– الجانب الرمزي المعنوي:

قل في شعر الغزل اعتبار صورة المرأة كرمز، بل طغى فيه الوصف الحسي المباشر الذي يقف عند حدود ما يثيره جسد المرأة من فتنة تحرك مشاعر الرجل، وتلهب وجده وتحرك فيه غريزته الحيوانية، فيسعى دون وعي في أغلب الأحيان إلى الظفر به قصد إطفاء وهج افتتانه وتحقيق توازنه النفسي. ولعل هيمنة هذا الوصف راجع إلى الحياة الباذخة التي شملت عهودا طويلة البلاد الأندلسية، ووفرت للإنسان كل الشروط للتمتع بملذاتها من طبيعة خلابة ودور للهو والترفيه، ونساء جميلات مختلفة أجناسهن وأعراقهن، وحرية جامحة أباحت بالتساوي للرجل والمرأة طرق المحظور متحديين كل القيم التي تدعو إلى الالتزام بمبادئ الدين والحكمة. صحيح أن كثيرا من الشعراء وإن تطرقوا للوصف الحسي المباشر للمرأة، لم يغالوا فيه واكتفوا بوصف سطحي خفيف لبعض مواضع الجمال عندها، وما تثيره فيهم من حب وولع وما يسبب فراقهن لهم من ألم وشوق وحنين في عفة ومثالية متناهيتين، كما هو الشأن بمقطوعة شعرية يعرب فيها الشاعر الأمير عبد الرحمان بن الحكم 238.176هـ[17] الذي تشبع بالفقه والأدب والعلم عن اشتياقه لزوجته طروب يقول:

فَمَا أَقْطَعُ اللَّيْلَ إِلاَّ نَحِيباً فَقَدْتُ الْهَوَى مذ فَقَدْتُ الحَبِيبَا

رطَالِعَةً ذكرتني طروباً وَإِمَا بَدَتْ لِي شَمْسُ النها

ويا كبدا أورثتها ندوباً فَيَا طُولَ شوقي إلى وجهها

وأوفرهم في الفؤاد نصيباً ويا أحسن الخلق في مقلتي

ر من بعد أن كنت مني قريباً[18] لئن حال دونك بعد المزا

باح الشاعر في هذا المقتطف الشعري بمدى شوقه لحبيبته طروب زوجته التي أبعدتها المعارك عن العيش في كنفه، وقد اعتمد موسيقى البحر المتقارب فعولن فعولن، وأسلوبا بسيطا يكاد يخلو من زخرف أو محسنات بديعية. وتفادى ذكر محاسن زوجته مكتفيا فقط باعتبارها أحسن الخلق كوصف تختزل مجموع الصفات الجميلة التي تتمتع بها جل النساء.

ولكن الملفت للانتباه هو أن شعر الغزل بنوعيه الإباحي والعفيف لم يرق بالمرأة لتصبح رمزا إلا عند القليل من الشعراء الذين تمكنوا من التحرر من النظرة الجسدية الجزئية للوصف الحسي ليسخّروا كل شيء جميل في المرأة، وكل الأدوار التي تضطلع بها في الحياة الخاصة والعامة في المجتمع، وجميع ما تتقاسم به مع الطبيعة الأندلسية من أوصاف جميلة خلابة، لتكون رمزا للحياة والطبيعة.

لقد عدها البعض حياة من نبعها يفيض الحب والحنان، ومن سحر جمالها يستطيب المكان والزمان، بهجة للنفس عند الوصال، وقلق واغتراب وموت عند الهجر والفراق والغياب. وقد تبلورت هذه الرؤية المثالية لها شيئا فشيئا، بدءا من التصوير المباشر السطحي الآني إلى التصوير الذي يحمل دلالات ورموزا وأبعادا عميقة. وبذلك أصبح جمالها عند ابن حمديس مثلا في بعض قصائده رمزا للحنين والأشواق، وارتبطت «بتجربة الغربة التي عاناها منذ أن خرج من وطنه صقلية، وحيث يصير حب المرأة جزءا من حبه للوطن ومن الحنين العارم إليه كما في هذا البيت الذي يصف حنينه إلى فتاة صغيرة السن ويشبهه بحنينه إلى وطنه":

وطنٌ وُلدتُ بأرضه ونشيتُ"19 رشأٌ أحنّ إلى هواه كأنّه

كما أضحت عنده رمزا للجنة الموعودة التي ظل يحن إليها، ويمني نفسه دوما بلقائها. كما في مقدمة غزلية لقصيدة مدحية له مطلعها:

ظبيةٌ تبسم عن سِمطي جُمانْ"20 سنحتْ في السربِ من حُورِ الجنانْ

كما له قصيدة صادية اعتبر المرأة "سعاد" التي قد تحيلنا إلى كعب بن زهير في قصيدة "**بانت سعاد**..." رمزا للكمال الخَلْقي الذي يبدو فيه البدر الكامل في غرته ناقصا أمامه في قوله:

فرَأيْتُ بدرَ التمّ عَنْهُ ناقِصاً[21] أسُعادُ إنّ كمالَ خَلْقِكِ رَاعَني

ولنا عودة لابن حمديس لدراسة بعض أشعاره في وصف المرأة في الفصل الثاني من البحث .

وأما اتخاذ المرأة رمزا للطبيعة فقد سار في هذا المنحى شعراء كثيرون لم يتركوا مظهرا جميلا في هذه ولا في تلك، إلا جمعوا بينهما ميالين إلى هذه تارة، وإلى تلك تارة أخرى."[22] ومنهم من ألصق صفات الطبيعة بالمرأة إجلالا وانتصارا لهذه كما في قول "ابن حزم:

وَوَرْدُ خَدَّيْكِ لاَ وَرْدٌ وَلاَ زَهَرُ مَرْآكَ مَرْآكَ لاَ شَمْسٌ وَلاَ قَمَرٌ

إن بنت بان فَلاَ عَيْنٌ وَلاَ أَثَرُ فِي ذِمَةِ اللهِ قَلْبٌ أنت ساكنه

في حين نجد المعتمد بن عباد يشبه الطبيعة بالمرآة مما يدل على جلالها وسمو موقعها في نفسه، في قوله:

كَواكِبٌ في السَماءِ تَبرُ كَأَنَّما ياسَمينُنا الغَضُّ

كَخَدِّ عَذراءَ نالَهُ العطرُ"[23] وَالطُرُقُ الحُمرُ في جَوانِبِهِ

ومنهم من مزج في وصفه بينهما حتى ليحتار القارئ في تحديد موضوع القصيدة أهو عن وصف المرأة أم الطبيعة، وكان ابن زيدون مثلا بارعا في "المزج بين عناصر في الطبيعة وقضايا ذات صلة بالنسيب، فكان أحيانا يطلب من النسيم أن يبلغ التحية لمن يهوى، كما اعتبر غناء البلبل بكاء للهجر مثلما اعتبر النسيم مشفقا لحاله. [24] كما في قوله:

مُضَمَّخَةُ الأَنفاسِ طَيِّبَةُ النَشرِ وَرامِشَةٍ يَشفي العَليلَ نَسيمُها

لِأَغيَدَ مَكحولِ المَدامِعِ بِالسِحرِ أَشارَ بِها نَحوي بَنانٌ مُنَعَّمٌ

وَعُلَّت بِمِسكٍ مِن شَمائِلِهِ الزُهرِ سَرَت نَضرَةٌ مِن عَهدِها في غُصونِها

أَخَذتُ النُجومَ الزُهرَ مِن راحَةِ البَدرِ إِذا هُوَ أَهدى الياسَمينَ بِكَفِّهِ

وَظَرفٌ كَعَرفِ الطيبِ أَو نَشوَةِ الخَمرِ لَهُ خُلُقٌ عَذبٌ وَخَلقٌ مُحَسَّنٌ

كَمِثلِ المُنى وَالوَصلِ في عُقُبِ الهَجرِ[25] يُعَلِّلُ نَفسي مِن حَديثٍ تَلَذُّهُ

يحتار القارئ في تحديد الموصوف في هذه الأبيات. هل الرامشة أم النسيم العليل أم الياسمين؟ لقد منح الشاعر بوصفه هذا سموا وجلالا للمرأة حينما خلق تجاوبا بينها وبين عناصر الطبيعة التي وظفها لتكون كناية للمرأة، وفي خدمة جمالها من جهة، وفي التعبير عما يخالج الشاعر من مشاعر الحنين والشوق وفرحة الوصل بعد حسرة الهجر من جهة أخرى. وقد زاد هذا الوصف بهاء اختياره البحر الطويل الذي ساير تموجاته النفسية القوية المثقلة بعبء النوى عن الحبيب.

لكم تضفي غيمة الحزن هالة من الجمال على الوصف خصوصا إذا كان الشاعر صادقا في حبه للمرأة متمكنا من ناصية لغته، قادرا على أن يسخر كل الأشياء والألفاظ والمعاني لتعبر عن حرقة وجده ولوعة هيامه، في قول الرمادي الذي يذكرنا في أبياته المحزنة ببعض ملامح الشاعر الفرنسي فيوم يقول:

ومنْ جزعِي تبْكِي الحَمامُ وتهتِفُ ومنْ شَجني تهْمَى السَّحابُ وتذرفُ

وتلكَ علَى فَقدِي نوائحُ هُتَّف[26] كأَنَّ السحابَ الواكفاتِ غواسِلي

لقد جعل السحاب تذرف الدموع بغزارة حزنا على حاله شجنه وحزنه، وكأنها بانهمارها تغسله، وأما الحمام يبكي ويهتف بهذيله كمدا وحسرة على ضياعه وفقده. نحن أمام صورة شعرية مزج الشاعر فيها بين الاستعارة حين أسند للسحاب صفة ذرف الدموع، وهي من مقومات الإنسان، وحين اعتبر هديل الحمام بكاء، وبين التشبيه الوارد في البيت الثاني.

قد يبدو أن الشاعر الأندلسي يجد غالبا متعة في الشعر الميال للعفة رغم أن الحياة الأندلسية وفرت له كل شروط اللذة والمتعة، خصوصا فرص الاحتكاك بالعنصر النسوي، كما منحت المرأة هامشا كبيرا من الحرية بموجبها استطاعت أن تساهم في حركية المجتمع، وأن تقدم نفسها ندا منافسا للرجل، وأن تختار من الرجال من يروقها، وأن ترفض من لم تستحسنه مهما كانت طبقته الاجتماعية وسلطته، بل قد يصبح سجين حبها في الكثير من الأحيان وطوع إرادتها، ولعل "المثل الأقوى دلالة على حرية المرأة ما تقدمه لنا ولادة بنت المستكفي "[27] التي بعد موت أبيها أسست صالونا شعريا جمعت فيه الشعراء والأدباء، ولم تكترث بمواقف الدين الإسلامي من المرأة. لقد حفظ لنا التاريخ أشعارا كثيرة تؤكد أن المتعة الحقيقية التي يبحث عنها الشاعر هي التي تكون مقترنة بحب صادق عفيف خال من كل نزوة تبتر بقاءه ودوامه، وهي حضور روحي تتناجى فيه المشاعر دون حاجة لشهوة جسدية تكسر قداسة المرأة ورمزيتها وتحط من كرامتها وعفتها التي "هي الملمح الوحيد الدال على احترام الرجل للمرأة التي يفكر فيها."[28]

ونستدل على ذلك ب "وصف الأبار ليلة أمضاها رفقة محبوبه، يقول في أبيات تذكرنا بأبيات ابن الفرج الجياني:

فَقَالَ كفّك عِنْدِي أفضل الوسد أردْت توسيده خدّي وَقل لَهُ

وبتَّ ظمآن لم أصدر وَلم أرد فَبَاتَ فِي حرمٍ لَا غدر يذعره

وَمَا درى اللَّيْل أَن الْبَدْر فِي عضدي[29] تحيّر اللَّيْل مِنْهُ أَيْن مطلعه

تظهر الأبيات الثلاث أن الشاعر فضل عدم مضاجعة حبيبته رغم تعطشه لها، وآثر كبح جماح شهوته الحيوانية احتراما لها رغبة منه في أن تشعر بالأمان والطمأنينة كما يقول، ولكن هل هذه هي الحقيقة؟ أم أن عوامل أخرى حالت دون ذلك، خصوصا أنه كان يروم توسيدها خده لولا أنها امتنعت وفضلت كفه وسادة لها، أو أنه اختلق الأبيات بغية عدم إفشاء سر حبيبته خوفا من التشهير بها أو بنفسه فيعاتب عن فعله ويعاب، وقد ينقلب حبهما إلى قطيعة وعداء إذا ما افتضح أمرها. ومهما يكن، فعدم المساس بها يدل على أنه يحترمها، وحضورها فقط بالنسبة له متعة حقيقية.

➢ خاتمة:

إن الشاعر الأندلسي العاشق المحب يقدس حبيبته، ويسعى إلى الحفاظ على كرامتها وإخفاء هويتها، والدليل على ذلك أنه يتفادى كثيرا ذكر اسمها بل يعوضه باسم مذكر حتى يخال القارئ أن المقصود بالوصف ذكرا، والأبيات السابقة توضح ذلك، ولنا فيها مثال كاف على ذلك، حيث اعتمد الشاعر ضمير الغائب(الهاء) في أصْدُر الأبيات الثلاث، كما لم يقرن الفعلين "قال وبات " بتاء التأنيث نسبة لحبيبته. والمتصفح لأغلب الأشعار الغزلية الأندلسية كذلك، يجد الشعراء يوردون صفة " المحبوب" بدل الحبيبة مما يؤدي إلى خلق التباس للقارئ في فهمه لمن المقصود في الوصف، أهو رجل أم امرأة؟ وقد يستمر الغموض إذا افتقرت القصيدة لقرينة أو مؤشر يحدد المرسل إليه. ولا نجد سببا قويا يدفع بهم إلى ذلك سوى أنهم غالبا ما يخفون هويات حبيباتهم احتراما لهن.

➢ الكلمات المفاتيح:

1. المرأة
2. الشعر الأندلسي
3. الغزل
4. الوصف الحسي
5. الازدواجية الأخلاقية
6. المجتمع الأندلسي

الهوامش:

[1]– علي أبو ملحم، "**الجاحظ رائد الجمالية العربية مجلة الفكر العربي**"، البلاغة العربية والبلاغيون، يونيو1987م ص231

[2] – المرجع نفسه. ص231

[3] – المرجع نفسه ص231

[4]– د فاطمة طحطح، "**صورة المرأة في الشعر الأندلسي بين الحسي والرمزي**"، www.alhind.ahlamontada.com أديب الظل. منتدى دفء.

[5]– هنري بيريس، "**الشعر الأندلسي**"، مرجع سابق، ص 319

[6]– هنري بيريس، "**الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ملامحه العامة وموضوعاته الرئيسية وقيمته التوثيقية**"، ترجمة دكتور الطاهر أحمد مكي، دار المعارف الطبعة الأولى، السنة 1988، ص 347

[7] – د فاطمة طحطح، مرجع سابق.

[8] – د سليمان القرشي، "**صورة المرأة في الشعر الأندلسي**"، منشورات التوحيدي، الطبعة الأولى، س 2015، ص 33

[9] – د فاطمة طحطح، "**صورة المرأة في الشعر الأندلسي بين الحسي والرمزي**"، مرجع سابق.

[10] جودت الركابي، "**في الأدب الأندلسي**"، مرجع سابق، ص44 –

[11] – أنظر ترجمته في **جذوة المقتبس** ورسالته، ص 290–294

[12]– د محمد رضوان الداية، "**المختار من الشعر الأندلسي**"، دار الفكر المعاصر، بيروت– لبنان، دمشق، ط 3 1412هـ– 1992م، ص 67–68

[13]– المرجع نفسه ص 163

[14] – المرجع نفسه ص165

[15] – المرجع نفسه ص174

[16]– د مصطفى الشكعة، " **لأدب الأندلسي**"، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، السنة 1971، ص 152–153

[17] – أنظر ترجمته وأخباره في **البيان المغرب** ص2–82، **تاريخ افتتاح الأندلس**، ص 80 ، **تاريخ ابن خلدون** 4–127.

[18]– د محمد رضوان الداية، "**المختار من الشعر الأندلسي**"، دار الفكر المعاصر بيروت– لبنان، دار الكر دمشق، ط 3 1412هـ، 1992م، ص 18.

[19] – د فاطمة طحطح، "**صورة المرأة في الشعر الأندلسي بين الحسي والرمزي**"، مرجع سابق.

[20] – المرجع نفسه.

[21]– ديوان ابن حمديس، تصحيح وتقديم: الدكتور إحسان عباس، دار صادر بيروت، ص288

[22] – د قاسم الحسيني، "**الرؤية النقدية في الإبداع**"، مرجع سابق، ص 223

[23]– المرجع نفسه ص223

[24] – المرجع نفسه، ص 225

[25]– ديوان ابن زيدون، شرح وتحقيق كرم البستاني، دار صادر بيروت، ص28

[26] – هنري بيريس، "**الشعر الأندلسي في عصر الطوائف**"، مرجع سابق، ص 358

[27] – المرجع نفسه، ص 349

[28] – المرجع نفسه، ص 370

[29]– المرجع نفسه، ص 370